

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

١) رابط الحلقة
http://www.altarefe.com/cnt/tvp/1081

المراد بالعهد المدني

العهد المدني بدأ بعد هجرة النبي ﷺ للمدينة لما قصدها وما تجشم ﷺ الإقامة فيها حتى وجد مأمنًا فيها ممن بايعوه في البيعتين العقبة الأولى والعقبة الثانية ، كما أرسل بعض أصحابه للحبشة ثم وجدوا موضع أمان للدعوة فأرسل أكثر منهم فوطّن حاله وحال أصحابه قبل قدومه المدينة .

وأما عن سمات العهد المدني فقد ظهر فيه توتر واستفاضة للأحكام الشرعية والجزئيات الفرعية مع تأكيد أصل الدعوة المكية من التوحيد ونبذ الشرك والأصول العامة للشريعة من العفاف والطهر والصدق والأمانة وغيرها مما دعت إليه الشريعة فأكدته وجاء بتفصيله في المدينة .

فمن أظهر معالم العهد المدني تواتر إنزال الأحكام وكذلك الاهتمام بالجزئيات واهتمام النبي ﷺ بداخلة أمره ببناء الدولة قبل توطين الدعوة في أطراف المدينة ، فلم ينشغل بالدعوة مجردًا بل أمر ببناء المسجد والمسجد هو معقل الإسلام ومنطلق دعوته ومجمع رسله فكانت دولة الإسلام في المدينة وما كان النبي ﷺ يجاوزها من جهة خطابه وتنزيل أحكامه بل كان يدعو الناس إليه حتى تقوى الشوكة ثم يتوجه للتوسع بحسب القدرة الشرعية والقدرة المادية للدولة الإسلامية .

أوجه الاتفاق والاختلاف بين العهد المكي والمدني

اتفق العهدين المكي والمدني في أصل الدعوة للتوحيد فهو الأصل في مكة والأصل في المدينة كما في دعوة جميع الأنبياء فكانت للتوحيد على حدٍ سواء .

وأما أوجه الافتراق والخلاف :

١) في العهد المدني أكثر النبي ﷺ من الأحكام التفصيلية وذلك لعلة أن النبي ﷺ أراد أن يدعو كفار قريش إلى الأصل لأن التشديد في الجزئيات يُنفِّر من الأصل ولهذا قد أخرج البخاري (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل)[٢] وذلك لو أن الشريعة جاءت بتحريم الزنا لقالوا لن ندع الزنا ولو جاءت بتحريم الخمر لقالوا لا ندع الخمر ; فجاء التحريم على التدرج .

٢) كان النهي أكثر من الأمر في مكة لوجود المخالفات عند كفار قريش منها ما يتعلق بالمحرمات ومما له صلة في أمر التوحيد ولهذا نجد في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾(الأنعام: ١٥١) نزلت هذه الأية في مكة فالمحرمات من جهة أصلها نزلت عن النبيﷺ في مكة ، وأما الأوامر فجاءت بكثرة في المدينة في أيات وأحاديث كثيرة .

٣) الآداب والسلوك كانت في المدينة أكثر منها في مكة مثل العفاف والحجاب والاختلاط فما كان النبي ﷺ يأمر به في العهد المكي ولكن جاء في العهد المدني على سبيل التدرج .

[٢]) رواه البخاري ٤٩٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

لهذا جاء في صحيح البخاري في قصة أبي سفيان لما سأله هرقل (وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ)[٣] فذكر العفاف فجاء على بناء الأصل قبل الفرع .

٤) لما بنى النبي ﷺ الدولة في المدينة بدأ بالجزئيات ببناء كيان الدولة من جهة بناء المسجد والقيام فيه بأحكام الشريعة مثل النكاح وغير ذلك فبدأ بالأصول ثم فصّل في الفروع .

أول أعمال النبي ﷺ في العهد المدني

قدم النبي ﷺ المدينة في ربيع الأول وبقي فيها فلم يخرج منها ﷺ حتى جاء المحرم من السنة التالية فلم يغزو غزوة قبل هذا .

بدأ ﷺ ببناء المسجد وفيه إشارة لاجتماع وتأليف القوم لعبادة الله وتطهير النفوس من دواخل النفاق ، وأنه من أعظم الواجبات لتحصين الأمة لإنه إذا لم يكن ثمة مجمع جاءت الدواخل النفسية بينهم أن فلان يريد كذا ويتآمر بكذا فجمع النبي ﷺ أمور أولها التعبد وتطهير النفوس من داخلة النفاق ووسوسة الشيطان فطهرها بالعبادة .

وكذلك قصد النبي ﷺ مقصدًا أخر وهو أن يرى الصحابة بعضهم بعضا فيكون بينهم ألفة ومودة وتراحم وعهد ليشعر الغني بالفقير والحاضر بالغائب والقوي بالضعيف والصحيح بالمريض وفي هذا نوع من تداعي الرحمة .

وأيضًا من المقاصد : كان الناس في المدينة على جهتين وثنيون وكتابيون فالوثنيون مثل الأوس والخزرج والكتابيون مثل اليهود من أهل الكتاب ولم يكن ثمة نصارى في المدينة ولما جاء المهاجرون

٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله (١٠٧٤/٣) ، رقم : (٢٧٨٢).

وأهل الإيمان إلى المدينة أراد النبي ﷺ أن يآخي بين المهاجرين والأنصار بدلا من أن ينعزلوا منفردين فتقع حزازة النفس والاضطراب فآخى النبي ﷺ بينهم فمن الأنصار من يأوى الاثنين والثلاثة من المهاجرين وهذا من المقاصد التي أرادها النبي ﷺ من بناء المسجد .

وفي هذا إشارة للحث على الاجتماع قبل الأعمال الفردية فعدم المخالطة تدعو للأثرة بالمال والعمل فتنقلب نيته فيكون حزازات نفسية وخصومات فمزج النبي ﷺ بين هؤلاء جميعًا وفي هذا تأليف لتحييد اليهود كذلك فيفوّت عليهم المكر بالمسلمين .

فمزج النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار حتى في النكاح فتزوج كثير من المهاجرين أنصاريات وفي ذلك نوع من التداخل وتوطين النفوس حتى لا يقع شيء من تسويل الشيطان فجمع الصف والألفة والاجتماع تكون بالمودة والرحمة التي تتفرع عن الصلة بالمصاهرة والنسب .

أتباع النبي ﷺ في العهد المدني

أتباع النبي ﷺ من أهل الإيمان كانوا على مرتبتين :

المرتبة الأولى : الأنصار وذلك أنهم سبقوا المهاجرين إلى المدينة فبايعوه في بيعة العقبة الأولى والثانية فكوّنوا كيان وهو في مكة مع عدد يسير فإسلام الأنصار من جهة العدد أكثر ولكن إسلام المهاجرين أقوى وأشد نصرة وأكبر اثرًا ولهذا فضلهم النبي ﷺ على غيرهم .

وكذلك الأنصار في ذاتهم كانوا على طائفتين : الأوس والخزرج وكان بينهم من الخصومة وأمور الجاهلية ما دفعه الإسلام فيما بعد لئلا يؤثر على دولة الإسلام .

وهناك المسلمون من غير المهاجرين من الأعراب ممن كان من غير العرب ممن أسلم مع رسول الله ﷺ سواء أعجمي ثم أقام في المدينة أو عربي ليس بوثني ولا مكي ولا مدني كيهود المدينة فمنهم

أفراد أمنوا برسول الله ﷺ ممن كانوا من يهود المدينة أو فارس ونحوها فهؤلاء كلهم اجتمعوا في المدينة أتباع للنبي ﷺ .

واهتم النبي ﷺ بأبرز الخصمين وهما الأوس والخزرج أكثر من غيرهم ، كما حرص على تأليف قلوب المهاجرين أكثر من تأليف قلوب الأنصار والسبب في ذلك للشدة النفسية فيهم لأنهم تركوا أموالهم وأزواجهم وبلادهم وأرضهم فلديهم خوف وتسويل شيطان أكثر مدخلا ممن كان في بلده وفيها مأكلهم ومشربهم ومسكنهم وذرياتهم فالخوف والضعف لا يرد إليهم لكن يرد في نفوس المهاجرين .

لهذا وقع في بعض أنفس الأنصار من ظاهر عطايا النبي ﷺ للمهاجرين شيء ، والنبي ﷺ كان يخشى أن يلحق بعض المهاجرين بكفار قريش لما فيهم من خوف وعوز وضعف فكان يعطيه تأليفًا وتسكينًا لهم كما جاء في الحديث (أَخْبَرَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَهْطًا وَأَنَا جَالِسٌ فِيهِمْ قَالَ فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ رَجُلًا لَمْ يُعْطِهِ وَهُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ فَقُمْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا قَالَ أَوْ مُسْلِمًا قَالَ فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا قَالَ أَوْ مُسْلِمًا قَالَ فَسَكَتُّ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ فِيهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا قَالَ أَوْ مُسْلِمًا يَعْنِي فَقَالَ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ)[٤] فيبين النبي ﷺ أن العطية ليست لمنزلة الإنسان في الإيمان فربما تكون العطية لبعده عن الإيمان وأما المؤمنين يكلهم النبي ﷺ لإيمانهم ولهذا تأليف القلب يكون في الكافر والمؤمن ;فذهب بعض الأئمة إلى أن تأليف القلب يكون أيضًا لضعاف الإيمان من أهل الإيمان فألف قلب النبي ﷺ من كان في قلبه ضعف .

٤) رواه مسلم بهذا اللفظ في الإيمان (١٨٠/٢) باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، وفي الزكاة (١٤٨/٧) باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه ، وأخرجه البخاري في الإيمان (٧٩/١) باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، وفي الزكاة (٣٤٠/٣) باب لا يسألون الناس إلحافًا، وأبوداود في السنة (٦٠/٥) باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، من حديث سعد بن أبي الوقاص .

وهكذا لم يكن النبي ﷺ يتعامل مع أتباعه على أمر واحد من جهة الشدة واللين ، كما في قصة الأعرابي الذي لان معه ﷺ وقد بال في المسجد بخلاف المتوطن ومن يجلس مع النبي ﷺ ليلا ونهارًا والعلة في ذلك أن اللحظة التي يرى فيها الأعرابي الذي يأتي من الأفاق إلى النبي ﷺ للمرة الأولى قد تثبت في ذهنه وينقلها لمن خلفه يقول رأيت النبي ﷺ حاد غضوب أو غير ذلك ، بينما الموجود يمزج الشدة بالرفق والغضب بالحلم الذي يراه من النبي ﷺ والمنع بالعطاء فلا يؤثر فيه ، وأما الغريب الوافد قد لا يجد في ذهنه إلا ذكرى واحدة .

لهذا نجد في قصة بول الإعرابي في مسجد النبي ﷺ كما جاء في الحديث (بينما نحن في المسجِد مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يبولُ في المسجد، فقال أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: مَهْ مَه! قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: لا تُزرِموه ، دَعُوه، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم دعاه، فقال له: إنَّ هذه المساجد لا تصلُح لشيءٍ مِن هذا البول ولا القذَر، إنَّما هي لِذكر الله عز وجل، والصَّلاة، وقراءة القرآن، -أو كما قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم - قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدَلوٍ من ماء، فشنَّه عليه)[٥] .

لما أغلظ عليه الصحابة لمقتضى فعله الذي يحتاج لتغليظ نهاهم النبي ﷺ عن زجره لأنه ﷺ نظر لحاله فهو غريب جاهل وقاصد للحق ولا يعرف مواضع الأرض من جهة التشريف فلان له النبي ﷺ ولو تحقق مفسدة يسيرة يمكن أن تزال فلما سر ذلك الإعرابي قال (فَقَالَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا)[٦] .

بينما لما رأى ﷺ البصاق في القبلة شدد فيه كما جاء في **الحديث**(عَنْ ابْنِ عُمَرَ-رضي الله عنهما- أَنَّهُ قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يُصَلِّي بَيْنَ يَدَيْ النَّاسِ فَحَتَّهَا ثُمَّ قَالَ حِينَ انْصَرَفَ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ فَلَا يَتَنَخَّمَنَّ أَحَدٌ قِبَلَ وَجْهِهِ فِي الصَّلَاةِ)[٧] **فظهر الغضب على وجهه** ﷺ **ونهى عن ذلك** مع أن البول أعظم نجاسة وأشد من البصاق باتفاق العقلاء

٥) رواه البخاري (٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٤) واللفظ له .
٦) رواه أبو داود (٣٨٠) ، والتِّرمذي (١٤٧) ، وأحمد (٧٢٥٥) وغيرهم من طرق عن سفيان بن عيينة عن الزُّهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة .
٧) رواه البخاري (٧٥٣) واللفظ له ، ومسلم (٥٥٠).

والعلة في ذلك أن الذي بصق من الصف الأول ومن الصحابة يعلم أن مثل هذا الموضع يُعظم فشدد مع ذاك ولان مع الآخر .

فكان النبي ﷺ يتعامل معهم بطرق متعددة تجلب البعيد بمقدار جلب تختلف عن القريب وكذلك كان ﷺ يبين علة هذا التباين في المعاملة كما بينها لسعد **(إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ)**[8] حتى لا يسول لهم الشيطان .

وقد جاء في الحديث لما وجد في نفوس الأنصار شيء من كثرة العطاء للمهاجرين **قال لهم ﷺ (أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ)**[9] وهذا فيه إشارة إلى أهمية التبرير في التباين في المعاملة حتى لا يحمل الفعل محمل سيء دفعًا للظنة والشك والريب .

ولابد من تجرد حظ النفس في باب الأعطية والهبة حتى ينصف في العطاء ولهذا قد يجد مسوغ فيزيد أحد في العطاء يقول لأن النبي ﷺ زاد !.

نقول انظر في حال النبي ﷺ تجد أنه يعطي من يتوفر فيه أسباب قد انتفت في غيره وأما إذا تساوى الناس في القرب أو البعد فينبغي أن يتساوى لهم العطاء وأما البعيد فيتألف بمقدار بعده ، فينبغي التجرد والاقتداء بالنبي ﷺ ، وأعظم وسيلة للإنصاف هو أن يتجرد الإنسان من كل حظ يرجع إلى نفسه في كل عطية أو هبة .

٨) رواه مسلم بهذا اللفظ في الإيمان (١٨٠/٢) باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، وفي الزكاة (١٤٨/٧) باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه ، وأخرجه البخاري في الإيمان (٧٩/١) باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل، وفي الزكاة (٣٤٠/٣) باب لا يسألون الناس إلحافًا، وأبوداود في السنة (٦٠/٥) باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، من حديث سعد بن أبي الوقاص .
٩) البخاري (٣٥٦٨) .

خصوم النبي ﷺ في العهد المدني

كان خصوم النبي ﷺ علىٰ مراتب ليسوا علىٰ مرتبة واحدة فمنهم خصوم داخل المدينة ومنهم خصوم خارج المدينة بالنسبة لمن داخل المدينة هم علىٰ مرتبتين اليهود والمنافقين وأما من هم خارج المدينة هم علىٰ مراتب الأولىٰ الأعداء القريبون من المدينة وذلك كحال كفار قريش ومشركي الأعراب ويأتي بعدهم الأعداء الأبعدين من كسرىٰ وقيصر وأتباعهم من فارس والروم ويلحق بهؤلاء من كان من أهل الكتاب في مصر أو في اليمن من أتباع الحارث الحميري أو الحارث الغساني وغير ذلك .

وثمة تقسيم باعتبار أخر للخصوم باعتبار القوة والضعف : فهناك خصوم أقوياء وخصوم ضعفاء . فينظر فيهم في داخلة أمرهم .

وقد فرق النبي ﷺ بين عقيدة الولاء والبراء وهي عقيدة صحيحة مرتبطة بأصل التوحيد ولا يجوز فكها عن أصل الملة والتوحيد فالولاء والبراء أصل من أصول التوحيد وكانت عقيدة النبي ﷺ من أول لحظة .وأما الاستعداء فلم يجلبه النبي ﷺ علىٰ أحد بما لا يستطيع مواجهته فلم يقحم المسلمين فيما لا يتحملون . فنظر النبي ﷺ لأسباب النصر الشرعية وأسباب النصر الكونية فجمع بينهما فحقق الله تعالىٰ له النصر كاملًا .

فجعل النبي ﷺ اليهود والمنافقين علىٰ مراتب ولم يستعدي الأبعدين الذين كانوا خارج المدينة وهم كفار قريش فكانوا الخطر الأول علىٰ المسلمين وأشد الأعداء للنبي ﷺ .

لهذا في عامه الأول لم يكن ثمة مواجهة إلا دفع صائل المشركين، فلم يقاتل النبي ﷺ مع وجود عدو في داخله فأراد تقوية الداخل قبل ذلك .

وذلك أن دولة الإسلام كحال الفسطاط يضعف إن لم يقوىٰ عموده وعمود المسلمين آنذاك في المدينة فحرص النبي ﷺ علىٰ تقوية عمود الإسلام في المدينة وكسر شوكة اليهود والمنافقين من داخل دولة الإسلام ثم توجه للأبعدين كما في غزوة بدر وكذلك في غزوة أحد والخندق فكانت كلها جهاد دفع في أطراف المدينة بلا طلب فلم يقدم إليهم ﷺ لانشغاله باليهود والمنافقين .

واليهود كذلك ليسوا علىٰ مرتبة واحدة في العداء بل كانوا علىٰ مراتب ثلاثة : بنو قينقاع يليها بنو النضير ثم بنو قريظه ، فأخرج النبي ﷺ بني قينقاع في السنة الثانية وسالم بقية اليهود في تلك الفترة ، ثم أخرج بني النضير في السنة الثالثة ، ثم أخرج بني قريظة في السنة الخامسة ولما فرغ منهم جاهد المنافقين ففتَّ عدوه الداخلي في المدينة ثم بدأ في مواجهة عدوه الخارجي .

وهذا من سياسة النبي ﷺ أن يفرق بين أعداء الداخل وأعداء الخارج لأن استعداء العدو مما يضعف شوكة المسلمين .

والمنافقون كذلك ليسوا علىٰ مرتبة واحدة فكسر النبي ﷺ شوكتهم بالترهيب والغلظة كما قال الله تعالىٰ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾(التحريم : ٩)وهو التلويح بالعقوبة عند المخالفة والتأنيب وتأليف القلب بالعطية والمال عند الموافقة ، ولهذا تعامل النبي معهم بمقدار نقافهم ولهذا قد جاء في حديث حذيفة بن اليمان (فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقاً، فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سُمِّ الْخِيَاطِ) [١٠] يعني ثمانية منهم علىٰ مرتبة عليّة من الخطر فكان النبي ﷺ يعلمهم ويعرف من دونهم ، وتمييز مراتب النفاق وتمييز الخطر علىٰ دولة الإسلام من الأمور المهمة التي يعرف بها التحييد .

١٠) رواه مسلم في صحيحه ج ٨/ ص ١٢٨ حديث رقم: ٧٢١٢.

الولاء والبراء وسياسة الاستعداء

مسألة الولاء والبراء متصلة بأصل العقيدة فما كان النبي ﷺ يخلط بين الولاء والبراء وبين سياسة الاستعداء وذلك أن الاستعداء فيه مواجهة لأدنى ذلة وأدنى مخالفة ولهذا جعل النبي ﷺ اليهود على مراتب وتدرج معهم وهذا من الحكمة والسياسة التي مكنت للنبي ﷺ وقوّت شوكة المسلمين .

والمنافقون واليهود بينهم تزاوج وتأييد في سياستهم الشريعة التي يعتقدون أنها تخدم رسالتهم لهذا كانوا يعطّلون دعوة النبي ﷺ إلى القتال والجهاد وتعامله مع خصومه والزكاة وتقسيمها فكانوا يثيرون القلائل في تقسيم أموال الزكاة وغير ذلك .

فلم يتعامل النبي ﷺ مع المنافقين على مرتبة واحدة بالمواجهة والنزاع بل كان يتعامل مع رؤوسهم والنفاق كان جديدًا على النبي ﷺ في المدينة فلم يكن في مكة ثمة نفاق ولا في المهاجرين ممن هاجر قبل الفتح وإنما وجد في المدينة لما قوي أمر الإسلام .

وقد اختلف تعامل النبي ﷺ مع عبدالله بن أبي وهو رأس المنافقين على مرحلتين :

المرحلة الاولى : قبل غزوة أحد فكان قبل غزوة أحد مُصدّر في المجالس والخطب فكان يخطب قبل صلاة الجمعة من منبر النبي ﷺ كما ذكر ابن إسحاق وغيره فيدعو لتأييد النبي ﷺ وذلك تأييد ظاهر يريد منه التمكين فيكون له أتباع ولهذا في غزوة أحد رجع بثلث الجيش ; فما رجع بثلث الجيش إلا وله شوكة وقوة .

وبعد غزوة أحد كانت المرحلة الثانية فمنعه النبي ﷺ من الخطبة في المسجد والتصدير في الناس .

ولهذا لا يصدر المنافق ورؤوس المنافقين ولا يكون له منبر ولا يكون له شوكة لأنه عند الأزمات كغزوة أحد سيشق الصف بالأتباع فهو مصدق ويظن به الخير ، وأما من جهة التأليف بكان النبي ﷺ يعطيه من العطية والهبة لتأمين شره مع علم النبي ﷺ بنفاقه وكذلك بشيء من المجالسة .

كيفية معرفة المنافقين

يعرف الحاكم المنافقين بأفعالهم والأفعال تختلف كذلك فالنفاق شعب ومن الشعب ما يوازي شعب أخرىٰ فترك الصلاة من أعظم شعب النفاق فالنبي ﷺ ذكر من أوصاف المنافقين أنهم يقومون كسالىٰ للصلاة وكذلك لا يشهدون صلاة الفجر ولا صلاة العشاء .

وكذلك من جهة الإنفاق لا ينفقون فثمة علامات وأمارات للمنافقين .

هل هذه الأمارات كافية للإفصاح ؟ لا .. هي ليست كافية للإعلام عن أسمائهن ولهذا يقرأ النبي ﷺ سورة المنافقون يوم الجمعة لأن الجمعة مشهد ومجمع وكان المنافقون يشهدونها أكثر من غيرها حتىٰ قال الصحابة عن صلاة الجماعة (وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق) وهذا فيه إشارة إلىٰ أن الصحابة يعرفون الأوصاف ولا يسمون .

ولهذا يواجه النفاق بإظهار شعبه للناس أن صفات المنافقين كذا ومن أفعالهم كذا ليحفظ أهل الإيمان من موافقتهم حينئذ يضعف النفاق وتقوىٰ شوكة أهل الإيمان .

وأما إذا وكل أهل النفاق من الأعلام وعصب الحياة والوجاهة والجيش وتصدروا في الأمة فعند النوازل والشدائد خلقوا اضطراب في الأمة فلا يستطيع إمام المسلمين أن يتوجه بأمر حاسم لأنه يخشىٰ تصدع الصف وسببه تمكين المنافق لهذا يجب ألا يُصدّر حتىٰ لو نزلت نازلة يكون تأثيره قليل لا يؤثر علىٰ شوكة المسلمين .

مصالحة النبي ﷺ لقريش في صلح الحديبية

بدأ النبي ﷺ بتوطين الناس ونشر الإسلام وتقوية أهل الإسلام وتطهير المدينة من شر وشوكة أهل الشرك واليهود والنفاق ، ثم تدرج في مواجهة خصومه وكان أقربهم المشركون في مكة فخرج ﷺ للحديبية يريد العمرة مسالمًا في العام السادس .

وأما ما قبل ذلك كان منشغلًا بالعبادة في المدينة وتوطين الإسلام وتعليم الناس مع كونه مؤيد من ربه ومعصوم لم يقوم بإرسال سرايا لكفار قريش ولا جيوش لفارس والروم وغسان وحمير وغيرهم من بقية البلدان من البحرين ونجد ، لكن قام بتأمين المدينة وإضعاف قريش بإضعاف محيطهم لأن من الأعداء من يضعف بإضعاف محيطه ولا يحتاج مواجهة أصلًا ، كحال القطعة من الثلج في الماء فتذوب من غير مواجهة ، ولهذا دخل مكة وغلب سلمها على حربها وربما لم يرق في فتحها دمًا .

قدم النبي ﷺ إلي مكة في السنة السادسة للحديبية جاء معتمرًا ليس مقاتلًا فأراد أن يهزمهم نفسيا ببيان العدد لهم قبل القتال فمنعوه ذلك العام فقط وذلك خشية معرة العرب من أنهم يمنعون دخول المسجد الحرام فلم يمنعوه على سبيل الدوام وتصالحوا على أن يأتي العام الذي يليه وكان صلح الحديبة لعشر سنوات .

حينئذٍ لما أمن النبي ﷺ العدو الأخطر في ذلك وهم كفار قريش كاتب بقية الملوك فتأخر الخطاب لهم والعلة أنه يجب مواجهة العدو الأدنى قبل استعداء العدو الأبعد لأن الرسالة إذا كانت من نبي تتضمن عدم المساومة في التوحيد فإذا دعوتهم للتوحيد لابد تبين لهم أنك لا تقبل أنصاف حلول ولا تزاوج بين ديننا ودينك كما كان كفار قريش يريدون نعبد ربك ستة أشهر وتعبد ربنا ستة أشهر فرفض النبي ﷺ .

ولهذا كاتب ﷺ هرقل ملك الروم وكسرىٰ ملك فارس وكاتب أمير البحرين وكاتب الحارث الغساني أمير الغساسنة وأمير حمير والمقوقس في مصر (أسلموا تسلموا) وكانت كل مكاتباته بعد صلح الحديبة وهذا يدل علىٰ أنه لم يكاتبهم ابتداءً وإنما كاتبهم بعد تأمين العدو القريب وإذا كان ذلك من صاحب عصمة وشوكة وتأييد من الله عز وجل فكيف بمن دونه .

جهاد النبي ﷺ في المدينة

خرج النبي ﷺ للقتال في أول محرم بعد هجرته لما علم بقدوم كفار قريش لقتاله لما خشوا من شوكة النبي ﷺ فقدموا مقاتلين له فاكتفىٰ النبي ﷺ بالصد وجهاد الدفع .

وجهاد النبي ﷺ كان في مكة بالكف كما في قوله تعالىٰ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾(سورة النساء :٧٧) وقد نزلت في مكة وقد جاء في التفسير (عن ابن عباس إن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي بمكة فشكوا إنا كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال إني أمرت بالعفو فلا تقتلوا القوم فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله تعالى هذه الآية) فأمرهم بالعبادة حتىٰ تقوىٰ شوكتهم .

ثم كان جهاد الطلب بعد أن قويت الشوكة في المدينة وأزال أعداء المدينة ، وفرق النبي ﷺ بين قطرين القطر الأول في المدينة والقطر الثاني في الحبشة فبعث النبي ﷺ لهم يخبرهم بأحوال المدينة وبيان أحكام الإسلام ولم يبين لهم شيء من أحكام الجهاد لأن المدينة أصبحت موضع تمكين فبدأ بالجهاد في المدينة ولم يتوجه بها في الحبشة لأن الأمم تختلف قوةً وضعفا .

ولهذا الأمم قد تستعمل آيات ولا تستعمل أخرىٰ لمناسبة الحال فنفرّق بين تعطيل النص وبين التدرج في تطبيقه فثمة أمر وثمة أمر وهذا هو المقصد من حال النبي ﷺ في التدرج .

حتى لما قدموا أواخر المهاجرين ما استدعى أصحابه من الحبشة ولا أمرهم برفع راية الجهاد عندهم وكانوا في بلد الشرك إنما أمرهم بالعبادة حتى يمكن لهم ولرسول الله ﷺ ولهذا لما رجع جعفر قال النبي ﷺ (وَاللهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ)[11] لأنه أخَّر خطاب الجهاد لهم فبقوا في الحبشة مدة طويلة .

ولهذا يُعلم أن تصدير الخطابات من بلد لبلد من غير معرفة الحال من الخطر ومما يثير الفتن واستئصال الشوكة وانتهاك الأعراض ولهذا لابد من النظر لحال البلد حتى يكون لها التمكين .

والدعوة إلى الإسلام مهمة الحاكم والوالي وقد تختلف مع كثرة الدول والناس والبلدان فلا يوجد إمام واحد الآن للمسلمين فيتوجه هذا الخطاب لجميع الأمراء والحكام والولاة بالدعوة للإسلام سواء كان أميرًا أو وزيرًا أو رئيسًا تأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

[11]) رواه الحاكم في المستدرك ٤٩٤١ .